دفاعاً عن الشهيد القائد الرمز ياسر عرفات

أرعبني كثيرا ما حدث في غزة ، وما شاهدته وقرأته وسمعته عبر الفضائيات ووسائل الإعلام المختلفة من وقائع وأحداث وتداعيات كارثية بكل المقاييس .

أرعبتني كثيرا مشاهد القتل والتدمير والسحل والإعتقالات والنهب والسرقات التي أتت على آخر ما تبقى من آمال لتحقيق الحلم الوطني الفلسطيني .

أرعبني التبرير الذي قدمته قيادات حماس لما إرتكبته من مجازر وأعمال خطيرة ، حيث زعم قسم من هذه القيادات أن ما حدث كان عملا ضروريا لإستئصال التيار الانقلابي في حركة (فتح) ، فيما وصف قسم آخر ما حدث بأنه يعتبر التحرير الثاني لقطاع غزة من (العملاء) بعد تحريرها من (الإحتلال) .. والطامة الكبرى أن قيادياً بارزا في (حماس) ظهر على قناة (الجزيرة) وهو يقول بدم بارد ان ما حدث في (غزة) كان قتالا بين الكفر والإيمان !!؟؟

أحمد الحبيشي

أرعبني كثيرا هذه الخطاب (الحماسي) ثلاثي الأبعاد بصدد تبرير ما حدث .. واستبد بي الرعب أكثر فأكثر عند المقارنة بين الأبعاد الثلاثة لهذا الخطاب التبريري البائس وبين مشاهد مأساوية تنفي وتكذب هذا الخطاب وليس أقلها مشهد همجي قام فيه مسلحو حركة حماس بإنزال صورة الرئيس ياسر عرفات والدوس عليها بأقدامهم وسرقة منزله ووثائقه والجوائز والهدايا التي تلقاها من عدد كبير من قادة الدول والمنظمات الدولية وحركات التحرر الوطني عبر مختلف مراحل مسيرته الكفاحية الوطنية التي تعتبر تراثاً مشرفاً للشعب الفلسطيني وكفاحه المشروع من أجل تحقيق الأهداف الوطنية التي عمدها الشعب الفلسطيني بالتضحيات الجسام و عشرات الالاف من الشهداء والجرحى .

لا يمكن أن نلغي عقولنا لنصدق خطاب التبرير (الحماسي) بأبعاده الثلاثة لما حدث في غزة ، فياسر عرفات الذي حطم مقاتلو حماس صورته وداسوا عليها ونهبوا منزله ووثائقه لم يكن قائدا لتيار إنقلابي في حركة فتح حتى يتم إستئصاله بتلك الطريقة البشعة .. كما أنه لم يكن في عداد (العملاء) الذين ينبغي تحرير غزة منهم ، نا هيك عن أنه لم يكن كافرا في معركة خاضها (المؤمنون الحماسيون) ضد فسطاط الكفر !!

من نافل القول ان الأحداث والوقائع أثبتت على امتداد أكثر من ٤٠ عاماً منذ اندلاع المقاومة الفلسطينية أنّ ياسر عرفات كان واحدا من القادة التاريخيين الذين تعاظمت قوتهم في أوقات الشدائد والنوائب.. ولأنّه كذلك فقد كان عرفات ولا يزال- رغم أنف الذين حطموا صورته وداسوا عليها ـ رمزاً حياً للقائد التاريخي الذي رسم بنضاله ومواقفه معالم قضية شعب مضطهد ، بصرف النظر عن الاختلافات والتباينات التي توجد في حركة فتح حتى يتم إستئصاله بتلك الطريقة البشعة .. كما أنه لم يكن في عداد (العملاء) الذين ينبغي تحرير غزة منهم ، نا هيك عن حماس التي كان لا يتردد في دفع فواتيرها .

لم تخل مسيرة عرفات الكفاحية من محطات مؤلمة حصد فيها أخطاء غيره دون أن يتبرأ منها، وأصر خلالها على الوقوف الى جانب كل أبناء شعبه ومناضليه في خنادق الصمود.

حدث ذلك في الأردن يوم رفعت فصائل اليسار الفلسطيني شعار إقامة سلطة وطنية في الأردن كقاعدة للكفاح المسلح في الأراضي المحتلة، وكان طليعة المقاومين الصامدين، وتعرض لحصار في جرش كاد أن يودي بحياته لولا تدخل مؤتمر القمة العربية الذي انعقد في القاهرة أواخر سبتمبر ١٩٧٠م، بإرسال وفد مكوّن من الرئيس السوداني جعفر النميري والشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية الكويتي، اللذين قاما باستخدام طائرة مروحية مصرية في عملية إنقاذ درامية للمقاتل المحاصر ياسر عرفات.

ياسر عرفات الذي حطم مقاتلو حماس صورته وداسوا عليها ونهبوا منزله ووثائقه لم يكن قائدا لتيار إنقلابي في حركة فتح حتى يتم استئصاله بتلك الطريقة البشعة .. كما أنه لم يكن في عداد (العملاء) الذين ينبغي تحرير غزة منهم، نا هيك عن أنه لم يكن كافرا في معركة خاضها (المؤمنون الحماسيون) ضد فسطاط الكفر !!

كان عرفات ولا يزال ـ رغم أنف الذين حطموا صورته وداسوا عليها ـ رمزا حيا للقائد التاريخي الذي رسم بنضاله ومواقفه معالم قضية شعب مضطهد ، بصرف النظر عن الاختلافات والتباينات التي توجد في حركة فتح حتى يتم استئصاله بتلك الطريقة البشعة .. ولذلك فقد اجترح الرجل الكثير من التضحيات، وتكبد المزيد من المعاناة حتى ولو كانت نتاج اختيارات لرفاق دربه لا يوافق عليها ومن بينها أخطاء حماس التي كان لا يتردد في دفع فواتيرها .

تكرر ذلك مرة أخرى في حصار بيروت أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨١م، حيث رفض عرفات عروضاً دولية لإنقاذ حياته وحده، وأصر على أن يكون انسحابه في موكب جماعي مع جميع مقاتلي الثورة الفلسطينية المحاصرين في بيروت (لم تكن يومها حركة "حماس" وحركة "الجهاد" قد ولدتا بعد).. وكان له ذلك حيث تمّ انسحابه مع آلاف المقاتلين الفلسطينيين والمتطوعين العرب على ظهر سفن يونانية بحماية سوفيتية، في مشهد تاريخي يرمز إلى صمود شعب وعدالة قضية.

وعندما اندلعت أحداث طرابلس في البقاع عام ١٩٨٢م بين القوات السورية وما تبقى من قوات الفصائل الفلسطينية في الأراضي اللبنانية الواقعة تحت سيطرة القوات السورية في لبنان، عاد عرفات فجأة لينضم إلى رفاق دربه، ويمنع عنهم مذبحة شبيهة بتلك التي كادت أن تقع في الأردن أو بيروت.. ومرة أخرى تتدخل الإرادات الخارجية لاستكمال تنفيذ مخطط تصفية الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان، حيث خرج عرفات مع مقاتلي الفصائل الفلسطينية المختلفة على ظهر سفن عربية وبحماية سوفيتية وفرنسية .

وكعادته في اجتراح المآثر اغتنم عرفات مرور سفينته في قناة السويس حيث قرر تحطيم الحواجز التي فرضت لتحول بين مصر ومحيطها العربي بعد توقيع اتفاق كامب ديفيد في مارس عام ١٩٧٩م، وأصر على لقاء الرئيس المصري حسني مبارك مدشناً بتلك الخطوة التاريخية غير المسبوقة أول لبنة مهدت لعودة مصر إلى الأمة العربية، ومواصلة دورها التاريخي الريادي في الدفاع عن القضايا العربية العادلة.

حين قرر عرفات لقاء أخيه الرئيس حسني مبارك أثبت أنّه واحد من قلائل القادة الذين يصنعون الأحداث ولا يركضون وراءها.. فقد استنكر معارضوه ذلك اللقاء الذي تم فوق مياه قناة السويس، وارتفعت من جديد الأبواق الناعقة بتخوينه.. لكنه لم يأبه بردود الفعل.. كما أنّه لم يشمت بكل الذين هاجموه وخونوه بعد أن رآهم يتسابقون على زيارة مصر ، ويتبارون في الإشادة برئيسها وأدوارها وطلب وساطتها وتدخلها في العديد من المآزق والأزمات العربية!!

بخروج المقاومة الفلسطينية من لبنان والأردن وإغلاق سورية أراضيها أمام الكفاح المسلح، خسرت القضية الفلسطينية قواعد ميدانية خلفية.. بيد أنّ عرفات لم يستسلم ولم يرفع الراية البيضاء ، حيث واصل نضاله وفق إستراتيجية جديدة من تونس، وتمكن من نقل القضية الفلسطينية إلى مرحلة جديدة توجت بالاعتراف الدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، ومهدت لاندلاع انتفاضة الحجارة التي أجبرت إسرائيل على الاعتراف بمنظمة التحرير والجلوس معها على طاولة المفاوضات المباشرة في مدريد وأوسلو وواشنطن، وصولاً إلى إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية التي نقلت كفاح الشعب الفلسطيني إلى داخل أراضيه المحتلة، وفرضت على أجندة المجتمع الدولي بأسره ضرورة الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته الوطنية المستقلة.

وفي المحطة الأخيرة من حياته الحافلة بالكفاح والتضحيات والمآثر الوطنية العظيمة فرض رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيريل شارون حصاراً طويلاً على ياسر عرفات في رام الله انتهى بموته شامخاً، غير أنّ ذلك الحصار لم يكن جديداً على رجل عظيم كان يستمد قوته دائماً من وجوده في قلب العواصف إلى جانب شعبه.. ولعل أبرز ما تميز به ذلك الحصار الأخير هو أنّه تم لأول مرة على الأرض التي كان عرفات يبحث عن ممرات صعبة إليها .. وقد أثبت عرفات أنّه لم يكن جباناً أو متخاذلاً في كل حصار تعرض له في المعارك والممرات السابقة في داخل الوطن وخارجه.. وسيكون حضوره أكثر قوة وصلابة في هذه المعركة التي داس خلالها مقاتلون ملثمون من حماس على صورته بهمجية رعناء ، دون أن يدركوا حقيقة أنهم كشفوا بهذه الفعلة الخطيرة عن وجوه جبانة تختفي خلف أقنعة لم يكن ياسر عرفات يستخدمها ـ أبداً ـ في معاركه التي خاضها دفاعا عن القضية الوطنية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني .

نقلا عن / صحيفة (26 سبتمبر)

عودة إلى حروب الجاهلية!

نحن نعيش في عصر الانقطاعات! ليس هناك مجال لكي يصوغ الكاتب فكرة ومدها على استقامتها حتي يصل إلي نتائج ملموسة، يمكن أن يبني عليها أفكارا أخري! وأصبح التنبؤ بمستقبل الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية مسألة مستحيلة، بعد أن سقطت النظرية، وسلمت أمرها لله نتيجة لغرائب الواقع!

كنا نتحدث في المقالات الماضية عن التطرف الايديولوجي وأهمية إحداث تحولات جوهرية في الثقافة الاستراتيجية لدي كل طرف من أطراف الصراع العربي الاسرائيلي، حتى يتحقق السلام . وأشرنا إلى أن التطرف الايديولوجي في الطرف العربي يتمثل في مواقف حماس المعلنة التي تنادي بأنه لا اعتراف بإسرائيل ولا تفاوض معها.

ومن ناحية أخرى يتمثل التطرف الايديولوجي في الطرف الاسرائيلي بالعقيدة السياسية لبعض التيارات والأحزاب الاسرائيلية، التي ترفض التفاهم مع الفلسطينيين، والتي مازال الشعار الصهيوني القديم العرب لا يعرفون سوي لغة القوة والردع معششا في أذهانهم ، وكان تصورنا أنه لا يمكن تحقيق السلام إلا بالتغيير الجوهري للثقافة الاستراتيجية السائدة لدى كل طرف من أطراف الصراع ، وعلى ذلك لابد لحماس باعتبارها الطرف الفلسطيني الذي حصل على الأغلبية في الانتخابات أن تغير من شعاراتها التقليدية وتدرك عدم واقعية شعار عدم الاعتراف بإسرائيل من ناحية ، وسذاجة شعار لا تفاوض مع إسرائيل من ناحية أخرى !

وكذلك لابد للطرف الاسرائيلي أن يغير من ثقافته الاستراتيجية، مدركا أن لا حياة آمنة للشعب الاسرائيلي إلا بتحقيق السلام مع الفلسطينيين، من خلال القبول بدولة فلسطينية مستقلة تعيش جنبا إلى جنب بجوار دولة إسرائيل وفق شروط وضمانات يقبلها الطرفان. انقلاب الواقع

غير ان الواقع انقلب على النظرية ! وسقطت كل تحليلاتنا السياسية بعدما قامت حماس بانقلابها على السلطة الفلسطينية و إعلانها غزة إمارة إسلامية مستقلة!

ولو حللنا خطاب حماس بعد إتمام هذا الانقلاب لأدركنا على الفور أننا عدنا. والحمد لله تعالي . إلى حروب الجاهلية ، ومازالت ذاكرتنا تحفظ ما درسناه عن حروب داحس والغبراء وغيرها من صراعات القبائل العربية.

السيد ياسين □

لقد صفت أصوات اعضاء حماس الانقلاب بأنه التحرير الثاني لغزة! وقال متحدث آخر بانفعال بدائي ان ما حدث أشبه بفتح مكة !

ولو تركنا لغة الخطاب وانتقلنا إلى ما حدث في الواقع لراعتنا الأحداث الاجرامية التي أقدم عليها اعضاء حماس ضد فتح! لقد ألقى بعض اعضاء حماس الذين رحبوا بفوز حماس في الانتخابات وتشكيلها للوزارة، وقررت أن هذه فرصة مواتية لكي تنتقل حماس من الايديولوجيا إلي الواقع ، بمعنى أن الشعارات الثورية. التي ترفعها كفصيل فلسطيني معارض، وأهمها عدم الاعتراف بإسرائيل، وعدم التفاوض معها. ستنتهي فور تسلمها السلطة لأن تولي السلطة معناه أنها أصبحت مسؤولة عن الشعب الفلسطيني وإشباع احتياجاته الأساسية ، وهذه المهمة تقتضي بالضرورة التفاوض مع إسرائيل في الأجل القصير للافراج عن الأرصدة الفلسطينية التي هي من حق الشعب الفلسطيني، وتعد ضرورية لتسيير الأمور في غزة والضفة، وفي الأجل الطويل للوصول إلي سلام واقعي وعادل مع إسرائيل، وذلك لأن المقاومة مهما اشتدت فهي لن تجبر إسرائيل علي الموافقة لإنشاء دولة فلسطينية مستقلة ، كان هذا هو أملي أن تغير حماس من جمود شعاراتها وأن تنزل إلي أرض الواقع.

هذه الواقعية حدثت في كل حروب التحرير في العالم . مقاومة نعم ، ولكن تفاوض أيضا للوصول إلي الهدف النهائي وهو تحرير الأرض، كما حدث في حروب التحرير في فيتنام والجزائر واليمن ، فلماذا لا يحدث بين حماس والدولة الاسرائيلية بشرط عدم التنازل عن الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني؟.

المسؤولية

غير أنني لا أريد في الواقع أن أحمل حماس كل المسؤولية، وذلك لأن الانهيار في الموقف الفلسطيني بدأ في ظل سيطرة فتح على الأوضاع ونحن نعرف جيدا التاريخ القريب ، حيث قامت انشقاقات عديدة في صفوف فتح، بالاضافة إلى الفساد الاجرامي الذي استشري في صفوف قادتها، الذين استولوا بدون وجه حق على أموال الشعب الفلسطيني ولا ننسى أن السلطة الفلسطينية في عهد الرئيس عرفات ضيعت فرصا متعددة لتحقيق سلام عادل نتيجة التشبث بشعارات جامدة وغير واقعية ، إلى أن دهمتها حقيقة أن الشارع الفلسطيني انحاز في الانتخابات إلى حماس ظنا منه أنها ستحقق له الخلاص من الاحتلال الاسرائيلي ، وستجلب له الدولة الفلسطينية المستقلة.

ولكن خاب فأل الشارع الفلسطيني كما خابت مراهناتنا حين توقعنا تحولات جذرية في اتجاهات حماس إزاء الدولة الاسرائيلية، سعيا وراء حل عادل للقضية الفلسطينية يصل إلى تحقيق حلم الدولة الفلسطينية المستقلة.

غير أنه يبدو أن التيارات الاسلامية التي تدعي الثورية، وتسعي إلى تغيير الواقع بأساليب انقلابية تنطلق من مجموعة من الأوهام الايديولوجية، أبرزها أنها تستطيع بوسائل شتى أن تغير الواقع وتشكله كما تشاء، حتى يستجيب ولو بالقوة المسلحة أو بالارهاب لما تريد أن تحققه من أهداف.

وفتح مكة معناه ببساطة تحريرها من الكفار الذين هم هنا أعضاء حركة فتح! ولا أنسى . حين كنت أميناً عاما لمنتدى الفكر العربي في عمان عاصمة الأردن(١٩٩٠-١٩٩٢م) . أن التيارات الاسلامية الأردنية راهنت بغباء على انتصار صدام حسين، وحين هزم هزيمة منكرة، لم تجد مخرجا إلا بتنظيم اجتماع شعبي حاشد حضره الألوف من أنصارها للاحتفال بذكرى فتح مكة!،

ما أقرب اليوم إلي البارحة!

□ مفكر مصري

الأوهام الإيديولوجية تأخذ في بعض الأحيان شكل الهوس الديني الذي يتمثل في اعتبار الماضي هو المرجعية .. ولعل هذا هو الذي يفسر إقدام بعض قيادات (حماس) على وصف الانقلاب الذي حدث في غزة بأنه أشبه ما يكون بفتح مكة!

أحاديث تناقض القرآن

كانت السنة، أو بالتعبير الأدق الحديث الذي ينسب للرسول، هي الباب المفتوح الذي دخلت منه فرق وفئات من الناس ليثبتوا دعاواهم بحديث يضعونه على لسان الرسول ويجعلون له سندا عاليا.

لقد أراد أعداء الإسلام، منذ أن بدأ أن يكيدوا له كما عرفتنا الآية «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» «فصلت: ٢٦»، ولكنهم عجزوا عن اللغو في القرآن لأنه محفوظ في الصدور، مثبت على كل وسائل الكتابة، ولذلك التفوا حوله بأن وضعوا أحاديث تحلل الحرام وتحرم الحلال وتسيء إلى الإسلام ، وإلى القرآن نفسه.

ولم يكن هؤلاء إلا فريقا واحدا من فرق عديدة، منهم الفرق السياسية ما بين أموين، وعباسيين، وشيعة، وسنة، ومنهم المذهبيون من معتزلة ومرجئة وقدرية بل وجد فيهم «الوضاع الصالحون» الذين وضعوا أحاديث «حسبة» لإرهاف الحاسة الدينية ولتعميق أثرها في النفوس عن طريق أحاديث تقضي بالنعيم لمن يكرر أدعية أو يصلي نوافل، وتنذر بالجحيم لكل من يغني أو يلهو أو يغفل عن صلاة، ولما رأي بعضهم انصراف الناس عن القرآن وضعوا أحاديث في فضائل كل سورة.

هذا ما تفيض به كتب الأحاديث نفسها والتي تصور ذلك بأن الحديث الصحيح كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، ولما بدأ رجال الحديث في تدوين كتبهم وجدوا مئات الألوف من الأحاديث المتداولة ، فقد قيل إن أحمد بن حنبل كان يعرف ألف ألف حديث «مليون» ، وإن مالكا كان يعرف ٦٠ ألفا، وإن البخاري كان يلم بخمسين ألف حديث، وبذل رجال الحديث جهدا بطوليا في استنقاذ الحديث النبوي من وهدة الموضوعات، فنزلوا بها من مئات الألوف إلى عشرات الألوف ومن عشرات الألوف إلي ما دون العشرة آلاف حتى انتهوا إلى خمسة آلاف أو أقل هي ما جاء في الصحيحين «البخاري ومسلم».

ولكن هذا لم ينقذ الحديث لأن عوامل عديدة أخري كانت تدفع عملية الوضع مثل سوء النظام السياسي واعتماده علي التعصبات المذهبية ، ومن انغلاق المجتمع وسيادة الجهالة التي تجعل الجماهير تتقبل الخرافة أكثر مما تتطلب الحقيقة .

وقد قرأت أحاديث عما دار بين النبي وزوجاته، في حين أن الرسول نفسه نهى المسلمين جميعاً عن أن يفضي أحدهم بما كان بينه وبين زوجته، فلا يعقل أن يكون الرسول قد قاله، كما لا يعقل أن تكون إحدي زوجاته قد أشارت إليه، ومع هذا فإن المحدثين الذين تحكمت منهم شهوة «الجمع» أثبتوها في كتبهم.

ووضع البعض مقاييس متشددة للأخذ بالحديث، فواصل بن عطاء لا يؤمن بأحاديث الآحاد، ويتبعه معظم المعتزلة، ووضع أبوحنيفة ثمانية ضوابط للأخذ بالحديث، ولكن الشغف بـ «التحديث» والرغبة فيه قضت علي كل هذه المعايير، ووصلت حد الفتنة عند بعضهم.

جمال البنا □

قال ابن مهدي: « فتنة الحديث أشد من فتنة المال وفتنة الولد ، لا تشبه فتنته فتنة ، كم من رجل يظن به الخير قد حملته فتنة الحديث علي الكذب» .

يقول ابن رجب الحنبلي : «يشير إلي أن من حدث من الصالحين من غير إتقان وحفظ فإنما حمله علي ذلك حب الحديث، والتشبه بالحفاظ ، فوقع في الكذب علي النبي وهو لا يعلم ، ولو تورع واتقي الله لكف عن ذلك فسلم ».

وآية هذا أننا نري أحاديث عديدة تخالف روح الإسلام ، والأصول العامة له ، بل تخالف العقل والمنطق مما لا يتسع المجال لشرحه، وقد عرضناه في كتابنا «السنة» وهو الجزء الثاني من كتاب «نحو فقه جديد».

ولكن ما يهمنا الآن ما يخالف صريح القرآن.

ويستعظم البعض ذلك ويقولون : هذا مستحيل ، وها نحن نضع بين أيديهم أمثلة لذلك.

فقد أورد البخاري حديث عكرمة مولي بن عباس « من بدل دينه فاقتلوه » ، وقد رفض الإمام مسلم كل أحاديث عكرمة لشبهات حامت حوله منها اتصاله بالسلاطين الذين كانوا يبحثون عن غطاء شرعي لقتل وتصفية خصومهم ومعارضيهم . ولكن البخاري أدرجه وأصبح هذا الحديث هو الأساس والسند في فرض حد الردة، فكيف لا، وقد جاء نص صريح به في البخاري؟!

نقول كيف يستقيم هذا الحديث مع خمسين آية علي الأقل من آيات القرآن تقرر حرية العقيدة؟ إن قبولنا له معناه أننا ـ معاذ الله ـ ننبذ هذه الآيات وراء صدورنا ونضحي بالقرآن في سبيل عكرمة والبخاري .

كيف يستقيم هذا الحديث مع الآيات المؤكدة «لا إكراه في الدين» (البقرة: ٢٥٦)؟ كيف يمكن أن يتفق الحديث مع «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» (يونس: ٩٩)؟

بل كيف يمكن أن نتفق مع ذكر القرآن الردة مرارا وتكرارا دون أن يرتب عليها عقوبة دنيوية؟

بل إن الحديث يناقض عمل الرسول ، فقد ارتد في حياته أعداد من المسلمين . منهم أحد كتبة الوحي . فما تعقبه بعقوبة ، بل رفض المساس بهم وقال لمن طلب إليه ذلك «لا إكراه في الدين».

نعلم بالطبع كل ما يقولونه في تبرير هذه المخالفة أو المناقضة ، من دعاوي واضحة التكلف ، لا يمكن أن تستقيم، لأن الحق أبلج.

هناك حديث رزق شيوعا، حتى لقد جاءت قرابة مائتي رواية عنه بألفاظ واحدة أو متقاربة هو «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم علي الله».

هذا الحديث الذي يبدأ «أمرت» يخالف عشرات الآيات التي تأمر الرسول بأن لا يتعدي إطار التبليغ وتحدد صلاحياته في البلاغ أو البيان فحسب، فإذا آمن من بلغهم كان بها، وإذا رفضوا فليس له أي سلطان عليهم ، إنه ليس جباراً، ولا مسيطراً، ولا حفيظاً، بل ولا حتي وكيلا، فأين هذا من أن يقاتلهم، إن الآيات تقول:

– «فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد» (آل عمران: ٢٠).

– «وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون» (يونس: ٤١).

– «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين» (الحجر: ٩٤).

– «فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين» (النحل: ٨٢).

– «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر» (الغاشية: ٢١-٢٢).

– «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون» (آل عمران: ١٢٨).

«فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم» (التوبة: ١٢٩).

– «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما علي رسولنا البلاغ المبين» (المائدة: ٩٢).

– «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما علي رسولنا البلاغ المبين» (التغابن: ١٢).

– «قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا وما علي الرسول إلا البلاغ المبين» (النور: ٥٤).

فهذه الآيات الصادقة توضح أن صلاحيات الرسول تقتصر علي البلاغ أو البيان، وأنه ليس من مهامه أن يتعسف الوسائل ليحملهم علي الإيمان به، دع عنك أن يحاربهم ليكونوا مؤمنين، فكيف تتفق هذه الآيات مع حديث يبدأ بـ «أمرت.. أن أقاتل الناس»؟

ومن الناحية العملية ، فإن الرسول لم يحارب ليحمل الناس على الإسلام .. لقد حارب دفاعا عن الإسلام ودرءاً للمشركين الذين حاولوا استئصال الإسلام ، ولما فتح مكة ـ بعد أن نقضت عهد الحديبية ـ فإنه سامح أئمة الكفر وعفا عنهم .

أما حرب أبي بكر فما كانت ردة عقيدة، فقد كان منهم من يؤمن بالله والرسول ويصلي ويصوم ، ولكنهم رفضوا الزكاة ورفضوا الحكومة المركزية وخلافة أبي بكر وأرادوا أن يعودوا إلى الأحكام القبلية والسلطة المناطقية .

أريد أن أقول لأساتذة الحديث بكليات الأزهر وغيرها إن تحت يدي تحقيقاً لمائتي رواية لهذا الحديث لم تنج واحدة منها من مأخذ، بحيث لم توجد رواية واحدة صحيحة، وما ينبغي أن توجد، لأنها تخالف القرآن، والرسول مبلغ ومبين، وليس له أن يزيد علي ذلك لأن الهداية والضلالة إنما هي من الله، يعني أن لها أسباباً موضوعية، وليس منها القتال ، وقد قال للرسول صراحة «إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ».

قد يسأل سائل : إذن ماذا نفعل بهذه الأحاديث ؟ وكيف نبرر صدورها ؟

إن الرد يمكن أن يأخذ صورتين:

الأولي أن هذا أمر لا يعنينا ، ولا نتوقف عنده ، ولا نبحث عنه .. فمادام القرآن قد حكم ، فإن الأمر قد حسم ولا شك في أننا نأخذ بما حكم به القرآن .

والصورة الثانية : هي أن الأمر مادام أمر قضية تغطي الملايين ، ومادامت المدة ما بين هجرة الرسول وتدوين السنة مائة وخمسين عاماً ، ومادام الأمر يمكن أن يحقق مآرب لحكام وسلاطين وفقهاء وعلماء وأعداء للإسلام يكيدون له بوضع أحاديث.. إلخ ، فهذا تحريف للإسلام بالأحاديث التي يزعم رواتها بأنها منسوبة للرسول .. وقد تكون قيلت بغير هذه الصورة، أو أنها قيلت في ملابسة معينة لا نعرفها، أو أنها قد تعرضت لتشويه وتحريف أو حذف أو إضافة .. وعلى كل حال فنحن لسنا مكلفين بتعليل أمر لم نضعه ولسنا مسؤولين عنه ولا يجوز أن يعلق بنفسنا ، أو يتسلل لضميرنا أي إثارة من عاطفة ، فالأمر بقدر ما لا يسمح بالتردد، بقدر ما إن احتمالات أخرى عديدة توجد.

الرسول لم يحارب ليحمل الناس إلى الإسلام .. لقد حارب دفاعا عن الإسلام ودرءا للمشركين الذين حاولوا استئصال الإسلام، ولما فتح مكة ـ بعد أن نقضت عهد الحديبية ـ فإنه سامح أئمة الكفر وعفا عنهم .

□ القاهرة / 20 يونيو 2007م